

تطور الحركة الفكرية بتلمسان في عهد السلطان

يغمراسن بن زيان (633-681هـ / 1235-1282م)

أ. خالد بلعري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي بلعباس

أردنا في هذا البحث أن نتحدث عن تطور الحركة الفكرية بتلمسان في عهد السلطان يغمراسن بن زيان، ونبين العوامل المساعدة على إزدهارها، وكذا دور علماء تلمسان في تطور العلوم خلال هذه الحقبة التاريخية من خلال العاهل الزياني لمدينة تلمسان التي اتخذها قاعدة لحكمه الفتى ومقر إدارته⁽¹⁾.



لقد اهتم السلطان يغمراسن بن زيان منذ استقرار سلطانه بالمغرب الأوسط على نشر الثقافة العلمية والأدبية، وكانت فترة حكمه التي دامت سبعة وأربعين سنة من أحفل عصور تاريخ المغرب الأوسط، وإنه ل يبدو من الغريب أن نجد الحياة الفكرية مزدهرة في عهده حتى في مرحلة الحروب التي خاضها مع جيرانه المرينيين في الغرب والحفصيين في الشرق. ويبدو أن ذلك راجع إلى النزعة العلمية الثقافية التي تميز بها يغمراسن الذي جرى على سياسة حرية البحث والتفكير الذي كان سائدا خلال العصر الموحيدي⁽²⁾. بحيث نجده يحب العلم. ويحترم العلماء ويقربهم إلى مجالسه، ويكرم وفادتهم، ويغدق عليهم الأموال والهدايا من أجل تشجيعهم على التدريس والتأليف، وهناك من الدلائل والإشارات ما يؤكد قولنا هذا. فلقد جاء في وصف أبي يحيى يغمراسن بن زيان المؤسس الحقيقي للدولة الزيانية ما يأتي: "وكان شجاعا فاضلا، حليما، متواضعا، ذا سؤدد وعفاف ومجد وعلاء، يؤثر الصالحين والعلماء، ويجالسهم كثيرا"⁽³⁾. وكان للمسجد الأعظم أثر كبير في النهوض بالحركة الفكرية بتلمسان. حيث ظهرت فكرة الدراسة به في عهد السلطان يغمراسن حين قدم إلى تلمسان الشيخ العالم أبو إسحاق إبراهيم

بن يخلف التنسي⁽⁴⁾ (ت 680هـ/1281م) كبير علماء زمانه الذي كان يعقد مجالسه العلمية بهذا المسجد. وكان يفد إلى سماعه الفقهاء والقضاة وحتى يغمراسن نفسه. كما أن المنافسة التي كانت بين يغمراسن وسلاطين بلاد المغرب الإسلامي في جلب الفقهاء والأدباء وإدراجهم في المجالس العلمية ساهمت هي الأخرى في دفع الحركة الفكرية بتلمسان وتطورها. حيث استطاع يغمراسن من استقطاب العالم أبي بكر بن عبد الله بن خطاب المرسى الأندلسي (ت 686هـ/1287م) إلى بلاطه⁽⁵⁾. والذي يقال عنه أن المستنصر أبا عبد الله بن أبي زكرياء الحفصي (648-675 هـ / 1249-1277م) طلبه للكتابة وأغدق عليه الأموال الكثيرة ليشجعه على الاستقرار بمملكة الحفصيين، لكنه رفض ذلك، ورد له أمواله فأصبح ذاهمة عند الخليفة الحفصي، إضافة إلى هذه العوامل التي ساهمت في تطور الحركة الفكرية بتلمسان في عهد يغمراسن. يجب أن لا تغفل عاملا آخر ساهم هو الآخر في هذا التطور ألا وهو دور حركة هجرة علماء الأندلس إلى المغرب الأوسط واستقرارهم بتلمسان حيث كانوا من الفقهاء والأدباء والعلماء والذين أسهموا مساهمة فعالة في تطور الحركة الفكرية بتلمسان⁽⁶⁾.

لقد أصبحت عاصمة دولة بني عبد الواد في عهد السلطان يغمراسن قبله يرتحل إليها طلاب العلم. لما اشتهر بها من علماء اكتسبوا شهرة واسعة، فمنهم من اهتم بعلوم الدين، ومنهم من جمع العلوم جميعا، وإذا كان العلماء المسلمين قد قسموا العلوم إلى مجموعتين كبيرتين هما: العلوم النقلية والعلوم العقلية، فإن الملاحظ أن أهم ما يميز الحياة الفكرية في عهد السلطان يغمراسن هو تأثير العلوم النقلية على الحياة الفكرية إذا كانت هي السائدة على عقول الناس⁽⁷⁾. ولذا وجه العلماء اهتمامهم لهذه العلوم التي عرفت تطور كبيرا وتنقسم العلوم النقلية إلى قسمين: علوم الدين وعلوم اللغة العربية.

العلوم الدينية

لقيت علوم القرآن من تفسير وقراءات وحديث وفقه وتصوف اهتمام دولة بني عبد الواد في عهد يغمراسن، وكثر المشتغلون بها لأنها تعد من العلوم الحمودة المفروضة على كل مسلم، لذلك نجد أحد الفقهاء يقول: "الناس يحتاجون إلى العلم في الدين كما يحتاجون إلى الطعام والشراب"⁽⁸⁾.

- علم الحديث: لم تكن كل مصادر الحديث محل ثقة المسلمين بل تخير العلماء من بين هذه المصادر طائفة صحت رواياتهم عندهم، واتصل سندها، ولم يتعرض رجالها للطعن، ومن هذه المصادر: الصحيحان للبخاري⁽⁹⁾ ومسلم⁽¹⁰⁾. وأبو عيسى بن عيسى الترميذي⁽¹¹⁾ صاحب الجامع، وأبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه⁽¹²⁾. وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي⁽¹³⁾ صاحب السنن، ومالك بن أنس صاحب الموطأ⁽¹⁴⁾.

وقد عنيت دولة بني عبد الواد بالحديث الشريف عناية كبيرة، واشتهرت في عهد السلطان يغمراسن طائفة كبيرة من المحدثين نذكر منهم محمد بن أبي بكر بن مرزوق المتوفي بتلمسان سنة 681 هـ⁽¹⁵⁾ وكان ابن مرزوق من أقدر أئمة عصره على تمييز

صحيح الأحاديث من منتحلها، بارعا في نسخ الكتب والمصاحف⁽¹⁶⁾. ثم أبو عبد الله محمد بن قطرال الذي كان من كبار الأئمة المحدثين في تدريس الحديث وروايته، وكان مشاركا في علوم كثيرة⁽¹⁷⁾. ثم ابن هدية الذي برع في الحديث، وكان متمكنا في النحو، عالما بالسير والأخبار⁽¹⁸⁾.

- علم التفسير: أصبح ضرورة دينية بعد أن اتسعت رقعة الإسلام ودخل فيه كثير من الأعاجم الذين صعب عليهم إدراك معاني القرآن الكريم، وما أحاط بنزوله على النبي صلى الله عليه وسلم من مناسبات وعلم التفسير يعد في مقدمة العلوم الدينية لأنه منبع العلوم الشرعية التي تعتمد على منهج القرآن والسنة في سياسة الدين والدنيا، ومن أهم المؤلفات التي كانت تدرس بدولة بني عبد الواد خلال هذه الفترة "لامية الشاطئي" و"الكشاف" لأبي القاسم عمر الزمخشري و"أنوار التنزيل" للبيضاوي و"التهذيب" للبيهقي.

ومن أهم الأعلام الذين عملوا في حقل التفسير خلال هذا العهد الفقيه الحافظ المفسر أبو إسحاق التنسي الذي كان بارعا في علم التفسير، فقد كان الناس يتزاحمون لحضور مجالسه التي كان يعقدها في مسجد القيصرية بتلمسان حتى ضاقت بهم الشوارع المتصلة بالمسجد وقد سعى يغمراسن إلى التقرب منه والاستفادة من علمه، ومما جاء في وصف هذا العالم أنه كان: "من العلماء الصالحين الأولياء، كبير القدر حيا وميتا، زاهد ورع، ذو كرامات شهيرة، ومكانة عند الملوك عظيمة"⁽¹⁹⁾، توفي عام 681 هـ.

ثم يحيى بن محمد بن موسى أبو زكرياء التلمساني الذي كان مفسرا حاذقا، سافر إلى مكة وتعلم على شيوخها من أمثال أبي الحسن بن البناء، ولما قفل راجعا من المشرق، استقر به المقام بالإسكندرية حتى توفي سنة 652 هـ⁽²⁰⁾.

- علم الفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية من حيث استنباطها من الأدلة التفصيلية وهي مأخذ

كذلك الشيخ أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي الذي كان نظم كثير من القصائد في التصوف⁽²⁷⁾.
لقد كان يغمراسن معجبا بالصوفية والمتصوفة ساعيا للتقرب منهم متحمسا لنيل بركتهم حريصا على زيارتهم، ويبدو أن يغمراسن ذاته، كانت تعلمه مسحة من الزهد، وهذا ما يظهر في مشاريعه العمرانية مثلا حيث ينسب إليه تشييد صومعتي الجامعين الكبيرين في كل من تاجرارت وأجادير⁽²⁸⁾.

العلوم الإنسانية

ونقصد بها العلوم التي تتصل بالعربية من نتاج أدبي نثر أو شعرا كما أدرج فيها النحو والصرف والبلاغة من تلك الدراسات التي ظهرت مع بداية عصر التدوين ونمت مع محاولة تفهم إعجاز القرآن الكريم.

اللغة العربية: حظيت الدراسات اللغوية بإقبال كبير من قبل كتاب وشعراء دولة بني عبد الواد كما اهتم بها أيضا علماء الدين لإرتباطهم الوثيق بعلمي القرآن خاصة وبالعلوم الدينية على وجه العموم⁽²⁹⁾. ومما ساعد على تطور اللغة العربية خلال هذه الفترة الحركة الدؤوبة التي عرفتها العلوم الدينية التي كانت تدور جلها في الفقه والحديث والتفسير، فقد كان الفقهاء يفسرون ويعلقون وينظمون الأراجيز ويشرحون الكتب الصعبة، فكان ذلك دافعا أساسيا لتطور اللغة العربية في عهد يغمراسن ومن بين فطاحل اللغة العربية خلال هذا العهد وأبرزهم إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري (ولد سنة 615 هـ). كان أديبا ولغويا بارزا ومن بين أساطين علم العروض، كما له منظومات في السير وأمداح النبي صلى الله عليه وسلم وله شعر يقول فيه:

العدر في الناس شيمة سلفت

قد طال بين الورى تصرفها

ما كل قدما سرت له نعم

منك يرى قدرها ويعرفها⁽³⁰⁾

الشرع من قرآن وسنة وإجماع وقياس. ومن أهم المؤلفات الرئيسية التي درست لطلاب المغرب الأوسط خلال هذا العهد، الموطأ للإمام مالك، والتمهيد لابن عبد البر، والمدونة للإمام سحنون، أما العلماء الذين ذاع صيتهم في الدراسات الفقهية فمن أشهرهم عبدون بن محمد الحباك والذي كان من فقهاء الحضرة، ثم أبو عبد الله محمد بن المعلم، والفقهاء أبو الحسن علي بن اللجام. ثم أبو عبد الله محمد المدكالي، والفقهاء أبو عبد الله بن مروان، وأبو المهدي عيسى بن عبد العزيز⁽²¹⁾.

- علم التصوف: انتشر التصوف على نطاق واسع في عهد يغمراسن، وذلك راجع إلى علاقة العاهل الزياني بالمتصوفة التي كانت جيدة معهم، وهناك من الدلائل والإشارات ما يؤكد هذه العلاقة فقد جاء في وصف أبي يحيى يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية ما يأتي: "وكان شجاعا، فاضلا، حلما، متواضعا، ذا سؤدد وعفاف ومجد وعلاء، يؤثر الصالحين والعلماء ويجالسهم كثيرا"⁽²¹⁾.

لقد برز الكثير من شيوخ التصوف خلال هذا العهد الذين اهتموا بالتصوف نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، أبو عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق (ت 681 هـ) الذي انكب على دراسة كتب التصوف وانقطع للعبادة، وكان يجتمع في جلسات عامة، وأخرى خاصة، فالجلسات العامة كان يحضرها الجمهور يجتمع فيها بعلماء المدينة البارزين، وأما الجلسات الخاصة فكان يخصصها لأصحابه الذين ينتمون إلى فرقته⁽²²⁾. وقد أمر السلطان يغمراسن بدفن محمد أبو عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق بقصره وأوصى بدفنه إلى جواره حينما يتوفى⁽²³⁾.

ومن المتصوفة أيضا أبو إسحاق إبراهيم بن علي الخياط الذي حظي بمكانة خاصة عند السلطان يغمراسن⁽²⁴⁾، ثم الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الحمال⁽²⁵⁾، والشيخ العالم الواعظ أبو عبد الله محمد بن رشيد البغدادى الذي نظم قصائد التوريات في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم⁽²⁶⁾، ومنهم

ومن أئمة الغريبة في عهد يغمراسن نذكر كزذلك، محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر أبو عبد الله، ولد بلمسان سنة 606 هـ، كان من بين فطاحل اللغة العربية خلال هذا العصر، وقد تصدر لإقراء العربية. - الأدب: ازدهر الادب ازدهارا كبيرا وقد أدت عدة عوامل إلى ازدهاره منها: عناية العاهل الزياني بالأدباء والعلماء مما كان له الأثر في تنشيط الحركة الفكرية والأدبية⁽³¹⁾. ومنها كذلك أن طبيعة موقع عاصمة بني عبد الواد تلمسان ومناظرها الجميلة والحلاية أثرت في إحساس الأدباء وفجرت مواهبهم في الإنتاج الفكري والأدبي⁽³²⁾، ويمكن تصور الإنتاج الأدبي للدولة بني عبد الواد خلال هذا العهد على النحو التالي: النشر: هو الطريقة الإعتيادية في أداء المعنى بدون إيقاع أو وزن أو قافية موحدة، وقد عرفه ابن خلدون بأنه "الكلام غير الموزون"⁽³³⁾. وقد عرف النشر ازدهارا في عهد يغمراسن من حيث الكم والكيف، فشاع أسلوب السجع والمحسنات البديعية في المراسلات والمكتبات والخطب، وكان في سوق النشر رائجا في عهد يغمراسن خاصة بعدما حل المهاجرون الأندلسيون ببلاد المغرب الأوسط فتأثر هذا الفن بالأدب الأندلسي إلا أنه لم يفقد شخصيته وأصالته المغربية وما تتميز به من ميزات تسمه بسمات فريدة وتطبعه بطابع خاص⁽³⁴⁾. وقد نبغ في هذا الميدان كتاب كثيرون في عهد يغمراسن من أبرزهم: أبو بكر بن خطاب الأندلسي⁽³⁵⁾ (تـ 688 هـ/ 1287 م) الذي كان فصيح اللسان، بليغ البيان، عارفا بأسلوب الكتابة، بارع الخط، شغل ديوان الرسائل بغرناطة، ثم وفد على يغمراسن مع جالية من شرق الأندلس فجعله صاحب القلم الأعلى في بلاطه، وصدرت عنه رسائل في مخاطبات ملوك تونس والمغرب الأقصى، وقد قال التنسي فيه "إنه بوفاته انقرض علم الكتابة"⁽³⁶⁾، ومن اشتهر منهم كذلك الكاتب ابن

وضاح الأندلسي الذي وفد هو الآخر على يغمراسن الذي نبغ في الترسل والكتابة الفنية⁽³⁷⁾. الشعر: شهد تطور كبيرا في عهد يغمراسن، وقد تميز بالركة والدقة، والتشايه الجميلة، والصور البديعية والعبارة السليمة والعاطفة الصادقة⁽³⁸⁾، وقد نبغ في ميدان الشعر كل من أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي الذي كان شاعرا مجيدا رائق الخط⁽³⁹⁾، وأبو بكر بن الخطاب الذي سبق الحديث عنه.

ومن ألوان الشعر التي كانت سائدة هناك الشعر الصوفي الذي غلب على الألوان الشعرية الأخرى خلال هذا العهد، ومن الشعر الصوفي قول أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي:

لله قل وذو الوجود وما حوى

ان كنت مراتدا بلوغ كمال

فالكل دون الله إن حققه

عدم على التفصيل والإجمال

وأعلم بأنك والعوالم كلما

لولا في محو وفي اضمحلال⁽⁴⁰⁾

من خلال هذا البحث يمكن القول أن الحركة الفكرية في عهد السلطان يغمراسن كانت نشيطة، ولم تؤثر كثرة الصراعات مع المرينيين والحفصيين على النشاط العقلي الذي كان سائدا، فقد تميز يغمراسن بعنائه بالثقافة والعلم ورعايته للأدب، وتقريب العلماء إلى مجالسه، وإغداق الأموال والهدايا عليهم من أجل تشجيعهم على التدريس والتأليف، وقد طغت العلوم النقلة على بقية العلوم الأخرى، وكان حظ العلوم الدينية كبيرا، التي تميزت بغزارة الإنتاج عن غيرها من الميادين الفكرية الأخرى، كما نلاحظ خلال هذا العهد ازدهار الإنتاج الأدبي الذي يغلب عليه القصائد الصوفية إلى جانب الرسائل، فأصبحت تلمسان مركزا علميا عظيما جلب إليه كثير من الطلبة بحثا عن الدراسة وطلب العلم.

الهوامش

01 - أنظر:

Bouali (S.A), Les deux grandes siège de Tlemcen E.NA.L Alger 1984, p26.

02 - عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج2، دار موفم للنشر والتوزيع، الجزائر 2000، ص 321.

أنظر كذلك: الأخضر عبدلي، مملكة تلمسان في عهد بني زيان، شهادة التعمق في البحث، المرحلة الثالثة، مرقونة كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، تونس 1987، ص 190.

03 - ابن خلدون يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر 190، ص 204.

04 - ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر بدون تاريخ، ص 66، انظر كذلك، أحمد

بابا التبنكتي، نيل الإتهاج بتطريز الدياج، دار الكتب العلمية، بيروت بدون تاريخ، ص ص 35 - 36.

05 - ابن مريم، المصدر السابق، ص 227.

06 - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ج1، ص 174.

07 - خالد بلعربي، التطور السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد في عهد السلطان يغمراسن (633 - 681 هـ/ 1235 - 1282م)، أطروحة دكتوراه، مرقونة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس 2004، ص260.

08 - القاضي عياض، الغنية، تحقيق ماهر زهير حرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، ص 56.

09 - هو أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة الشهير البخاري، سيد المحدثين، وصاحب الجامع الصحيح أجل كتب الحديث توفي البخاري بقرية "خرقند" إحدى قرى سمرقند سنة 256م.

10 - هو أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، أحد الشيوخين، وصاحب ثاني الصحيحين، توفي بنيسابور، سنة 261هـ.

11 - هو أبو عيسى محمد بن عيسى الترميذي الضعيف المتوفي سنة 279هـ.

12 - هو أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة المتوفي سنة 313هـ.

13 - هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفي سنة 303هـ.

14 - هو إمام دار الهجرة و سيد فقهاء الحجاز أبو عبد الله مالك بن أنس صاحب المذهب المعروف باسمه توفي بالمدينة المنورة، دفن بالقيع سنة 179هـ.

15 - أمر السلطان يغمراسن بدفن محمد أبي بكر بن مرزوق (629 - 681هـ) و هو الجلد الخامس أو السادس لأبي عبد الله أحمد بن مرزوق المتوفي سنة 781هـ بقصره،

وأوصى بدفنه إلى جواره حيثما يتوفى ابن خلدون العبر، المجلد السابع، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1983، ص842.

16 - عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد 26، جويلية - أوت 1975، ص140.

17 - ابن مرزوق أبو عبد الله، المجموع، ميكروفيلم، الخزنة العامة الرباط، رقم 20، ورقة 45.

18 - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ج2، ص443.

19 - ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ج1، ص114.

20 - محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، جورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص ص 95 - 96.

21 - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص205.

22 - ابن مرزوق، المجموع، ورقة 4 و 5.

23 - ابن خلدون، العبر، ص 842.

24 - ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ج1، ص118.

25 - نفسه، ج1، ص 118.

26 - نفسه، ج1، ص118.

27 - نفسه، ج1، ص103.

28 - نفسه، ج1، ص207.

29 - عبد الحميد حاجيات الحياة الفكرية ... المقال السابق، ص149.

30 - محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، ص96.

31 - عبد الحميد حاجيات، تلمسان مركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط ضمن مجلة الحضارة الإسلامية، العدد 01، السنة 1993، ص39.

32 - رشيد مصطفىاوي، تلمسان في الأدب العربي، ضمن مجلة الأصالة، العدد 26، جويلية - أوت 1975، ص346.

33 - ابن خلدون المقدمة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص573.

34 - الأخضر عبدلي، المرجع السابق، ص ص 251 - 252.

35 - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة مصر، بدون تاريخ، ص275، انظر كذلك بغية الرواد، ج1، ص129، ابن مريم، البستان، ص227.

36 - التنسي أبو عبد الله، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعيد، للمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص128.

37 - ابن الأعرج، زبدة التاريخ و زهرة الشماريخ، الخزنة الحسنية، الرباط رقم 170، ج3، ورقة35.

38 - الأخضر عبدلي، المرجع الاسبق، ص243.

39 - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص103.

40 - نفسه، ص104.

